الماء المالح

للأستاذ أديب عباسي

ورث يوسف الجمّال عن أبيه بضعة عشر فداناً من الأرض ، ونظر حوله فلم ير غير هذه الأفدنة وزوجة وصبياً في الخامسة من عمره وطفلة ما تزال تحبو ، وحيوانين هزيلين يستخدمهما في فلاحته . وفكر ملياً ماذا يصنع وكيف يسير بقية الطريق ؟ أيستمرُّ يستغلُّ الأرض ويستَدرُّها وهي هنا — على سيف الصحراء — كثيرة المطل عسيرة الحِلاب شديدة الختل ، إذا جادها الغيث — وهو شحيح — فنما الزرع ، لم يسلم من ريح الشمال تجففه وتذويه ، أو الريح الشرقية تلفحه وتذريه ، أو الدودة تعشش في خيوطه وتأتي عليه ، أو الجراد يحط على الحقل أخضر ممرعاً ويتركه أحمر كالحاً لاحياة ولا نماء فيه ؟ أيمضي يفلح الأرض ويزرعها ، وتلك هي احتمالات الثراء السريع الذي ينشده وتغمض على صوره عيناه وتطيف بها أحلامه في اليقظة وفي المنام ؟ « كلا ! كلا ! فالأرض التي لاتعطي إلا الكفاف حين تعطي لايفتأ المرء لاصقاً بها مشدوداً إليها ما عاش . وأين من ارتفع وجهه عن الأرض ممن ركنوا إلى الأرض ؟ ! هذا والذي رحمه الله ، ألم يقطع أربعين عاماً محنياً فوقها مكبوباً عليها حتى غدا من طول الانحناء لاينصب قامة ولا يقيم ظهراً ؟ فماذا ترك ؟! إنني أجيل عينيَّ هنا وهناك فلا أرى إلا هذا الثور الهزيل وذلك البهيم لايمضي يوم أو يومان حتى ينفق مما أرهقه النير وبهظه الثور قرينه في الميل عليه والاسراع في السير دونه . ولست أدري ماذا يكون حالنا هذا العام إذا تأخر المطر أسبوعاً آخر أو أسبوعين ؟ إن لدينا ما يكاد يوصلنا إلى بدء الحصاد ، ولكن ماذا نصير إليه بعد أوان الحصاد إذا ظلَّ وجه السماء أمداً آخر على جفافه الشديد وجموده المؤنس فصوَّح النبت وهلك الزرع الذي نما مع البَدْريّ [1] ودلَّت تباشيره على الخير الوفير ، ولكن شوَّل الغيم [2] بعده وانقطع القطر فصدى النبت وجفَّ وأوشك أن يزول ؟ »

هكذا شرع يوسف الجمال يناجي نفسه لما نظر حوله ورأى الفقر والخصاصة اللذين خلّف له والده . وفكر ملياً ماذا هو صانع ، أيستمر يفلح الأرض ويزرعها وتستمر آماله تتراوح بين أقصى اليأس والرجاء تبعاً لانحباس المطر أو إغداقه . وهل في ذلك ما يحقق الآمال المسولة والأماني العذاب ؟ « ثم لمَ لا أكون كموسى وخليل التاجرين توفيقاً ويُسرَ حال ؟ ولكن أوّاه أين

(١) البدري : المطر قبيل الشتاء

(٢) يقال شولت الناقة إذا انقطع لبنها

رأس المال ، وكيف أبدأ التجارة كما بدآها ؟ ولكن هل من اللازم أن يكون المرء تاجراً وزارعاً معاً ؟ ولمَ لا أبيع هذه الفدادين بمحصولها هذا العام فأتخلص إلى الأبد من كدّ الفلاحة وعسرها ، وأتخلص من ريب المحل هذا العام وكلّ عام ؟ »

وعرض يوسف الجمال رغبته هذه على أهل البلدة ، فتقدم حالاً من ابتاع الأفدنة بغلتها ، إذ ليس يجفو الفلاح الأمين الأرض مهما جفته وقست عليه ، ولا ينقطع له منها رجاء مهما تقطعت أسباب الرجاء . وهو يعلم بعدُ أنها مهما جفته لا تخذله ، ومهما ضغطت عليه لا تسحقه ، وإنما تخرجه جليداً على الشدة أبياً على اليأس

ومن الإنصاف أن نذكر أن زوجة يوسف لم تكن راضية عن هذا التبديل والتحول من استقرار الزراعة إلى مغامرة التجارة . وفي أصبوحة اليوم الذي جرت فيه صفقة البيع جاءته بعينين مغرورقتين وأهداب مخضلة وخاطبته : ماذا أنت صانع يا يوسف؟ أتبيع الأرض التي حفظها لك أبوك أربعين عاماً كما حفظها له أبوه وحفظها كل أب لابنه وجد لحفيده حتى وصلت إليك غير منقوصة ولا متحيفة ؟ ألا تحس بأننا نفقد شيئاً غير التراب والحجارة إذ نفقد الأرض ؟ بربك ألا تشتاق الحين بعد الحين أن ترى قطع هذه الأرض التي تغل والتي لا تغل ، وتجوس خلالها وفي صدرك مثل الذي تحسه لولديك أو منزلك حينما تغيب عنهم أمداً طويلا ؟ تصور كم دغدغ أبوك وأجدادك صور هذه الأرض بمحاريثهم ، وكم توسدوا ثراها وحلموا الأحلام فوقها ! وكم قامتهم وبنت أجسامهم القوية بما تدر وتنتج ! ! تصور هذا يا يوسف وانظر أي شيء نفقد مع البيع!

وكأن حديث الزوجة قد نفذ شيئاً إلى مكامن الشعور في صدر الزوج فأطرق يفكر ... ولكن لم تلبث صور الثراء السريع والعيش الموطأ أن رقصت في خياله دورة أو دورتين حتى انحسر عن صدره شعور الحنين واللهفة الذي أثارته زوجه بحديثها ، فرفع رأسه وخاطبها بجفاء

لقد عزمت على الخلاص من عناء الفلاحة وأتعابها ، فلا تلجي في الجدل ولا تمادي في النصح والاشفاق . إنني سوف أكون تاجراً كهؤلاء التجار الذين يقضون أوقاتهم في لعب « الطاولة » أو « المنقلة » أو القمار أو في الجلوس والحديث ، ثم في التهويم والنوم وما إليها من أسباب المتع وبواعث اللذة

ولم تجادل الزوجة . فهي تعرف من عناده وإصراره ما لا يجدي معه جدل ولا حوار

* * *

قبض يوسف الثمن بضع عشرات من الجنيهات وأستأجر دكاناً وحشد فيه من السلع كل ما قدر له الرواج السريع وظن فيه الربح الوفير . وجلس على كرسي في ركن من الدكان ينتظر تهافت الشارين عليه وإربا كهم إياه بكثرة الطلب والمجادلة في جودة السلع وأثمانها . ولكن ارتفع النهار وأقبل الظهر دون أن يؤم دكانه شار ؛ وبُعيد الظهر جاءته صبية صغيرة ببيضتين تطلب فلفلا . فقبض قبضة وصرها في ورقة ، ولكن الصغيرة استقلت الكمية وطلبت المزيد ، ولما لم يزدها استردت البيضتين ... وعزى يوسف نفسه بأن الناس لا بدّ مقبلون عليه متى علموا مكانه من السوق وعلموا جودة البضائع عنده ورخصها . ولا حاجة إلى القول بأن النهار الأول مضى دون أن يبيع بما يزيد عن بضعة قروش . وجاء النهار التالي ولم يكن خيراً من سابقه ، وكذلك اليوم الثالث والرابع إلى آخر الأسبوع . وعندها أخذ الشك

يذب إلى نفسه والوساوس تساوره ؛ وأفضى إلى زوجته بما أخذ يتدسس إليه من ريب وشكوك مخاطبته بقولها : عليك أن تصبر هنا يا يوسف صبرك على الأرض أو أكثر ؛ وأزيدك أن احتمال الخسارة المفاجئة هنا أشد وأنكى . فأنت فى الفلاحة إذ تفقد بعض ما تفقده يعوّض عليك عنه غالباً فى السنوات الآتية ، والأرض بعد باقية لك ، ولكن الخسارة فى التجارة معناها الدمار والخراب . وكم من تاجر أصبح فى نعيم وبُلْهنية وأمسى فى شقاء الفقر وضيق الفاقة ! فواجبك إذن الصبر وطول الأناة . وعلى كلٍّ أحب أن أنزل غداً لأرى كيف تبيع

وفى صباح اليوم التالى نزلت الزوجة وجلست بين الجدار وبين رفوف السلع القائمة بحيث ترى ولا تُرى . وجاء أول شار فقام زوجها وعلى وجهه جهومة الارتياب وكدرة الهم وأحضر حاجة الرجل ، فقلّبها هذا بين يديه فلم تعجبه وطلب خيراً منها ، فأجابه يوسف : إن هذه السلعة خير ما عندى ، ولن ترى أحسن منها فى جميع السوق . وأقسم لك بشرفي أننى أدفعها لك بلا ثمن إذا وجدت أفضل منها ؛ ثم إننى أكتفى منك ثمناً لها برأس المال . إلا أن الشارى هز رأسه وخرج لم يشتر شيئاً . ولم تطق الزوجة صبراً فخرجت إليه وقالت : الآن علمت لماذا يتجنّب الناس دكانك ؟ لتعلم أن أكثر الناس يكرهون العبوس والاكفهرار فى وجه التاجر ، فلكل الناس همومهم ؛ ويجب ألا تضيف إلى همومهم همك . ثم إن لجاجتك وإلحاحك على أن حاجتك هى أحسن الحاجات يبثان الشك والريب فى نفس الشارى . فالناس تعلم بالخبرة أن التاجر لا يُطنب فى امتداح السلعة إلا إذا كان يشك هو فى جودتها ، وإلا لترك هذه السلعة تعلن عن نفسها بنفسها . ثم إن توكيدك الأقسام بأنك تقدّم السلعة للشارى بلا ثمن إذا وجد خيراً منها دلّه على أنك لا تقيم وزناً كبيراً لفضيلة الصدق . أما قولك أنك تبيعه السلعة بلا ربح فدلالة الكذب فيه واضحة ، إذ لماذا أنت هنا إذا كنت تبيع السلعة برأس المال متجاوزاً عن الربح ؟ وهب أنك أخجلت الرجل فابتاع السلعة فهو ليس بعائد إلى دكانك مرة أخرى ، فالشارى يجب أن يكون حراً فى كل شيء ، حراً فى الاختيار ، حراً فى تعيين الثمن ، حراً فى ألا تظن فيه الكزازة وحب المماكسة ؛ وإذا استشعر شيئاً من ذلك فى دكان من الدكاكين فليس بعائد إليه . هذه أمور لعلك تجهلها لقلة خبرتك بشؤون السوق وتركك مشترى حاجات البيت لى . وكم ألححت عليك أن تقوم أنت بشراء ما نحتاجه فكنت تعتذر بأن تغيبك فى شئون الفلاحة سحابة النهار لا يسمح لك بارتياد السوق ومعرفتها جيداً . وإذن إليك ما أفدته بالخبرة من هذه الشؤون ، وما هو خليق أن يجتذب الشارين ويُحسّن الحال : عليك أن تبسط وجهك وألا تكثر من التوكيد والأقسام ، وأن تكون صبوراً ، وألا تشعر الشاري شيئاً من الضيق والحرج أو الاحتقار ، فليس أقتل للتجارة وأدعى لبوارها من هذه . اعرض حاجتك عرضاً مقبولاً وأرح نفسك وأرح الشارى من الأيمان ، فهى لن تزيده يقيناً بما تقول . امتدح السلعة ودلّ على صفاتها ولكن باعتدال . وإياك ومثل هذه الأقوال : « إن سلعي خير ما فى السوق ، وإنني أعطيكها بلا ثمن » وغيرها مما لا يفيدك شيئاً إلا اعتقاد الشارى أنك تكذب وأن السلعة قد تكون من الرداءة بحيث تحتاج إلى كل هذه الأقسام والتوكيد . ثم إياك أن تبدى شيئاً من الدهشة أو الامتعاض مهما عرض الشارى ثمناً للسلعة . أفهمه بلطف أن الثمن الذى يعرضه هو دون ما يستطيع بيعها به ؛ وإذا خرج لم

يشتر شيئاً فلا تشيعه بدمدمة الامتعاض وعبوس الفشل . ثم الربح ، اكتف منه بالقليل تبع كثيراً وتربح . وبالجملة عليك أن تجعل علاقتك بالشارى علاقة مقبولة غير منفّرة

* * *

وكأن يوسف استفاد من نصائح زوجه الذكية وخبرتها الصحيحة ، فتحسنت عنده نسبة البيع اليومى ، فبش وتطلق وجهه بعد أن كان يغالب نفسه مغالبة على اصطناع البشاشة والحبور . وسارت الحال سيرها الطبيعي عاماً وبعض العام ، وحسب يوسف أرباحه عند نهاية العام فوجدها لا بأس بها ، وإن كانت دون ما كان يؤمل من الغنى المفاجئ وهو شهوته المتحكمة وهواه الكمين الذى طلّق الفلاحة من أجله ... وعلى كل فقد عزم على أن يمضى في هذا السبيل قُدُماً ، فليس بعيداً أن يصبح فى خلال بضعة أعوام كأغنى تاجر فى البلدة . ثم ألم تيسر له هذه التجارة حياة الدعة والراحة كما كان يتشهى ويأمل ؟

غير أن جموح الخيال ونزق الشهوة جعلاه على غير استقرار من أمره ، فعاوده هوى الغنى السريع على مستوى جديد أعلى من مستواه الأول . وإذن فتجارته هذه بحالتها المحدودة لا تُنيله وطراً ولا تبلغه غاية . فماذا يصنع إذاً ؟ قام فى نفسه هذا السؤال وأبى أن يتراجع ؛ وعندها أحس كأن شيئاً من داخله يوسوس له ويهتف به : ما ضرك يا يوسف لو جربت حظك — كما يجرب الناس حظوظهم — فى القمار ؟ وأراد يوسف أن يطرد من صدره كل ما يبعث على التردد فيما وسوس له به ، فقال : لن أقامر بمبالغ كبيرة ، يكفي ربح يوم واحد . هاهم أولاء أناس أعرفهم لا يفتأون يقامرون ومع ذلك لم يفتقروا ولم تخرب بيوتهم ، كما يقال عادة عن عواقب القمار .

وعلى كل فأنا محصن نفسى من الآن وعازم ألا يزيد المبلغ الذي أقامر به على بضعة قروش

وفى الليل أمّ يوسف مجلس المقامرين فى أحد الدور المتطرّفة ، وتلطف به المقامرون القدماء فقام وقد أضيف إلى عشرة القروش التى جاء بها عشرات ؛ وانكفأ إلى بيته وإهابه لا يكاد يسعه من فرط السرور ؛ وأيقن بأن نجمه أخذ فى الصعود وأنه لابد مدرك الثراء السريع ومحقق أحلامه بجملتها

وسألته زوجته فيم كان تأخره ، فتلطف لها بالاعتذار ودفع إليها حفنة من قطع النقود المختلفة ، وسألته فى هذا المبلغ الكبير من أين جاء ، فأجاب بأن توفيقه في البيع ذلك النهار كان توفيقاً نادراً

وعاد يوسف طبعاً إلى مجلس القمار فى الليلة التالية ، وعاد إلى الكسب والخسارة كما كان يحلو للمقامرين الماهرين حتى لا يؤسوه من القمار قبل أن تتمكن عادته منه ، وعندها ما أسهل أن يجردوه من كل ما لديه

وهكذا مرت الليالى وصاحبنا لا ينفكّ يقامر ويقامر . وفى خلال ثلاثة أشهر افتقد ما لديه من الدراهم التى كان ينوى أن يبتاع بها بضاعة جديدة فى أول الموسم ، فأصبحت يده صفراً . وهنا شعر كأن قلبه يهبط من موضعه ، وكأن ماء بارداً يصب على جسمه . فلم يكن يقدر أن القمار يفعل به كل هذا الفعل ؛ ولم يكن يجرؤ أن يجرى حساباً على ما لديه حتى يظل على اطمئنان الجهل بحاله ، وما أودى به القمار من ماله . وكانت هذه الصدمة تعيد إليه رشده لو لم تكن العادة قد استحكمت منه إلى الحد الذى يكاد يستحيل الفكاك منها عنده . ومن هنا صار همه بعدها أن يبيع في النهار ما يستطيع بيعه ويذهب فى المساء يقامر به علّه يستردّ بعض مافقد . ولكن هيهات ! فقد أعمته الخسارة وأضحى

من اليسير على القامرين الماهرين أن يخدعوه ويجروا عليه الغش فى اللعب . وكانت زوجته تسأله عما صارت إليه تجارته ، ولِمَ ترى البضائع تذهب ولا يؤتى لها بعوض ؟ فكان يجيبها أجوبة فيها امتعاض وصرف عن التمادي فى السؤال . وأخيراً عولت على معرفة الحقيقة من طريق آخر . ولم يطل بها البحث حتى عرفت كل شيء

وعاد يوسف كعادته متأخراً إحدى الليالى فوجد زوجته ما زالت جالسة عند رأس ابنيها ورأسها منكّس إلى حجرها ، فهمس متكلفاً السرور والغبطة ، إلا أنها رفعت رأسها ولم تجبه بشيء ، وإنما كان على وجهها المتجهم وفى عينيها المحمرتين وآثار الدمع على خديها ما صرفه إلى فراشه دون أن يتبس ببنت شفة . فلقد شعر بأنها عرفت حقيقة حاله وما آل إليه أمره ، وخير له إذن أن يتجنب العاصفة وهى فى إبان عصفها

وفى الصباح قامت زوجته إلى ابنيها وأخذتهما بيديها وسارت تبغي الخروج . فناداها : إلى أين وما ذا تعنين ؟ فأجابت بجفاء : هذا لا يعنيك . إننى ماضية أقيم مع أهلى بضعة أسابيع

— ولكن كيف لا يعنينى غيابك ، ومن يقوم بشؤون البيت ؟ وهل تظنين أننى أقدر أن أخبز وأطبخ وأقوم بمهام التجارة ؟

فحدجته بنظرة لم يستطع أن يتلقاها بعينيه ، فكسر نظره وإن لم يشح عنها بوجهه ليوهمها أنه مازال ناظراً إليها ولم ترعبه بنظرتها ، وتقدمت خطوة نحوه وسألته بلهجة لم يسمع منها مثلها قط :

أتقول مهام التجارة ؟ ! سمعتك تقولها ! وهل بقيت لك تجارة لتقوم بمهامها ؟ ! لقد طلبت الراحة إذ طلقت الفلاحة ، وسوف ترتاح راحة تامة حينما يأتى القمار على البقية الباقية ... هذا وأحب أن أترك لك البيت لتبيعه حينما تحتاج إلى ثمنه . ألا يسرك هذا ؟ !

— أرجوك يا مريم ، أرجوك ! لا تفضحينى ! أقسم لك بشرفى وروح والدى أن يكون هذا آخر عهدى بالقمار ! كفى ما جره علينا من دمار

وقام إليها يترضاها ويقبل جبينها حيناً ووجنات الطفلين حيناً آخر . وما زال بها حتى فتّر عزمها على الذهاب ، فعادت إلى البيت وذهب هو إلى عمله

* * *

وعادت الأمور إلى مجاريها واستردّ يوسف شيئاً من نشاطه بعد أن انقطع عن القمار ، وكاد يلم شعثه ويرأب بعض الصدوع فى تجارته التى أوشكت على البوار ، وظل حاله في انتعاش إلى أن هبط البلدة رجل غريب يحمل كتاباً فى كيس من قماش ، ولم يطل المقام بهذا الرجل الغريب حتى شاع فى البلدة أن لديه فى كتابه مفاتيح الكنوز التى خلفها الأوائل والتى لا تزال مطمورة فى الخرائب والقبور القديمة المبثوثة حول البلدة . وبحكم العلة المستحكمة والهوى المزمن كان صاحبنا يوسف أول المصدقين لِمَا أذاع الرجل عن نفسه من القدرة على كشف الكنوز . وفى ذات مساء دار حديث بين يوسف وهذا الرجل كانت نهايته كالآتي :

— أتؤكد لي أنك قادر بكتابك وسحرك على الاهتداء إلى مواضع الكنوز وكشفها يا أبا ميسور ؟

— ثق بهذا وثوقك بأن فى وجهك عينين وفى يديك عشر أصابع

— ماذا لو شرعنا فى البحث إذن ؟

— ولكن البحث يحتاج الى أشياء ياصاح : يحتاج الى البخور وغيره مما نستعين به على طرد الأرصاد التى أقامها الأولون على هذه الكنوز لتضلل

الباحثين أو تغولهم أو تخفى الكنز كلما أوشك أن ينكشف

— هذا على يا أبا ميسور ، وليس عليك منه شيء .

هكذا اتفقا . وفى الصباح نقد يوسف صاحبه نصف جنيه يشترى به بخوراً وغيره مما سيحتاج إليه فى طرد الأرصاد وترضى الجن

وشرعا فى البحث متسترين خشية الافتضاح والوقوع تحت طائلة العقاب

اختار صاحبنا أبو ميسور مغارة من المغاور النائية عن البلدة لأن كتابه — كما زعم — دله على وجود كنز من الكنوز فيها . وشرع ينظر فى سقفها وجوانبها ملياً ويقرأ فى كتابه ، ثم أخذ يقيس أبعادها ويرسم خطوطاً متقاطعة فيها إلى أن انتهى إلى نقطة معينة رسم حولها دائرة ، ثم أوقد النار وألقى عليها البخور ، ثم نثر عليه مادة أخرى لم يدر صاحبنا يوسف ما هى . ولما سأله عنها أجابه : هى خليط من مواد عديدة يؤتى بها خاصة من الهند والصين ؛ ومن هنا كانت كثيرة التكاليف عزيزة إلا على من يبذل فى إعدادها المال الوفير

وأشار أبو ميسور إلى الدائرة التى رسمها فى قاع المغارة وقال ليوسف : أحفر هنا . وأخذ يوسف المعول وشرع يحفر بقوة وحماسة شديدتين . وفى خلال ثلاث ساعات فتح حفرة تكاد تغيب الرجل وهو منتصب . وانتبه يوسف إلى عمق الحفرة التى حفر وإلى يديه اللتين تحبلتا[1] من شدة العمل ، فاستولى عليه الريب وشعور الخيبة فأحس بالتعب الشديد والكلال المفرط . ولما عاود الحفر عاوده ببطء وضعف ظاهرين . ولاحظ أبو ميسور ذلك وأدرك علته ، فقال كأنه يحدث نفسه : يخيل إلى أن هذا البخور الذى ابتعناه بنصف جنيه ليس من الصنف الجيد الذى يعجل دخانه طرد الأرصاد واظهار الكنوز . وعلى كل فقد يكون سبقنا إلى الكنز باحث فاستحوز عليه دوننا ؛ فخير لنا إذن أن ننتقل إلى مغارة أخرى

ولم يفت صاحبنا يوسف ما ناجى أبو ميسور به نفسه ، لأن التعب والريب صيّراه شديد الإصغاء والسماع ، ولأن هذا — أبا ميسور — أراد ألا يصل صوته من الخفوت إلى درجة الخفاء

— صدقت يا أبا ميسور ! قد يكون سبقنا إلى الكنز باحث غيرنا فناله دوننا

— قد يكون هذا وقد يكون أن البخور ليس من الجودة والنقاء بحيث يخدّر الأرصاد فتتخلى عن الكنز الدفين

— غداً نجدّد البخور إن شاء الله

— ولكن نصف الجنيه الذى دفعته إلىّ استنفدناه فى مشترى هذا البخور الرّدىء

— غداً يكون لديك غيره . لا يهمك أمر الدراهم . كلما احتجت إلى مبلغ فأنا أدفعه إليك

وهكذا سار الحال على هذا المنوال بضعة أسابيع ويوسف دائب على الحفر فى ظلام الليل ودفع المبلغ بعد المبلغ إلى صاحبه ليشترى البخور وخلافه من المواد التى كان يُغرب فى تسميتها دون أن يكون لها وجود ألبتة ، لكى يشده يوسف بعلمه ووقوفه على أخفى الأسرار التى تتعلق بالبحث عن الكنوز ، وحتى لا يؤيسه من أمل النجاح قبل أن يكون استصفى البقية الباقية فى دكانه

وكان يوسف وصاحبه يحفران كل مغارة وينبشان كل قبر فى البحث عن الكنوز . وكانت تقع لهما فى أثناء البحث وقائع ومفاجآت عديدة ، كأن يفضى البحث والحفر إلى مغارة مطمورة فينتعش الأمل الذاهب ، وأن ينتهيا إلى نقرة

(١) مجلت اليد نقطت من العمل

فى صخر رأس أو جرة مهشمة فيضرب أبو ميسور كفاً على كف ويشرع يندب سوء الحظ الذى جعلهما يجيئان متأخرين فى البحث حتى يكون الكنز المخبوء نصيب غيرهما ممن سبقوهما إلى التنقيب ، أو كأن يطير خفاش أو بومة فيطير له قلب يوسف الذي غدا يعتقد اعتقاداً جنونياً بالأرصاد وصار يرى في كل ما يدب أو يطير فى هذه المغاور رصداً بصورته الحقيقية أو المتخفية ، كما لم يفتأ يوحى إليه أبو ميسور

وتشاء المصادفة أن يحفرا بعد يأس فى مغارة مرّا بها أولاً ، ولكن أبا ميسور أهملها لأنه لم ير فيها دليلاً على وجود كنز من الكنوز فيها ، فيكشف الحفر فجأة عن إبريق من البرنز بغطاء محكم . ويرفع يوسف الغطاء بحركة عصبية لا وعى فيها . ولما بدا له ما كان بداخله صاح صيحة مرعبة هرع لها أبو ميسور من ركن المغارة حيث كان يحرق البخور ويعزم ؛ ونظر إلى أسفل ، وعندها صاح : مكانك ! إياك أن تمسه ! الرصد ! الرصد بدأ يتحرك ! آه لقد أخذ يضايقنى البخور ! نحتاج إلى البخور وإلا غاب الكنز وهلكنا ! السرعة ! السرعة إلى البلدة وإلى بالبخور ! الباق يوشك أن ينفد ! الارصاد بدأت تضيق علىّ ، الارصاد !

وخرج يوسف من الحفرة مغفور الفم مضعضع الأعصاب زائغ العينين راعش اليدين ، ونظر إلى أبى ميسور وهو عند باب الحفرة يحرق البخور ويقرأ ويعزم نظرة فيها توسل الرجاء ، وبريق الأمل ، وفيها بلاهة الدهشة ورعشة الخوف . لقد تحقق أمل العمر أو كاد ، وحومت السعادة فوق رأسه . ولكن الرصد ! الرصد يوشك أن يطيرها !

— ألا تزال واقفاً ! ؟ ألا تتحرك يا خشبة ؟ !

— نشدتك الله يا أبا ميسور ما ذا أصنع ؟ !

— إلى البلدة ! إلى البلدة وإلىّ بالبخور من أجود الأصناف ! لا تسر على الأرض بل طر طيراً فى الهواء . هيا ! هيا ! وإلا طار الكنز وطرت أنا معه !!!

وشمر يوسف أذياله وانطلق يعدو فى ناحية البلدة بسرعة المجنون

ولا حاجة إلى القول بأن يوسف عاد بعد ساعة يحمل البخور فلم يجد أبا ميسور . ونظر فى قاع الحفرة فرأى مكان الابريق حفرة خالية ، فصاح صيحة خرجت معها البقية الباقية من عقله ؛ وشرع يلطم وجهه ويلدم صدره وهو فى خلال ذلك يصيح أخذتهما الأرصاد ! ! أخذتهما الأرصاد ! !

وانثنى يعدو راجعاً إلى البلدة ولازمة جنونه : أخذتهما الأرصاد ! أخذتهما الأرصاد ! وسار فى سوق البلدة يلطم وجهه ويكرر الصراخ : أخذتهما الأرصاد ! أخذتهما الأرصاد . وحف به الصبية من كل جانب وأمسك كل بحجرين وشرع يقرعهما بعضهما ببعض ويصيح : أخذتهما الأرصاد ! أخذتهما الأرصاد ! وظلوا وراءه يقرعون الحجارة ويردون على لازمته بمثلها إلى أن أبلغوه منزله على هذه الحال من العته والخبال

أما مريم زوجته التعسة فلم تقتلها الصدمة وإن كادت تصرعها ، فلقد خفف وقعها بعض الشىء أنها كانت تقدّر لزوجها شيئاً قريباً من هذا منذ رأته ينصرف هذا الانصراف الجنونى إلى البحث عن الكنوز ، وفشلت فشلاً تاماً فى صرفه عن هذا الاتجاه الجديد الذى وضعه فى جو من الخفاء والاعتقاد يسهلان ضعضعة الحس واختبال الفكر

لقد كانت مريم بطفلين وزوج يعولهم ، أما الآن فقد أضحت بثلاثة أطفال عليها أن ترى هى كيف تعولهم ... ! !

أديب عباسى